كلمة طلاب الفقيد

فقيد العلم
العلامة أحمد راتب النفاخ

الدكتور محمد الدالي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وأَبْشِرُوا بالجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا وفي الآخِرَةِ ولَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فيها ما تَدَّعُونَ . نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ . ومَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وعَمِلَ صَالِحاً وقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . ولا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ ولا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وما يُلَقَّاها إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وما يُلَقَّاها إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [سورة فصلت : ٣٠ – ٣٥] .

والحمد لله الذي استأثر بالبقاء وكتب على عباده الفناء ، فـ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٥] و﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الحُكْمُ وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة القصص : ٨٨] ﴿ ولِلهِ مِيرَاثُ السَّماوَاتِ والأَرْضِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٠] .

... وهي بعدُ يا أستاذ كُليمة سئلتها ، أقولها بلسان من علَّمته – وهم أَجيال لا يحصون – وبلسان من اختص بك من طلابك ، وهم فئة غير قليلة . وأَنت تراني كلما كتبت حرفاً محوته ، وكلما خطرت خاطرة أردت تقييدها تأبَّت ومضت ، وكلما عنَّ معنى حاولت الإبانة عنه تفتحت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

معان وصور ما من سبيل إلى حصرها والعبارة عنها . ومثلي فيما أنا فيه وله يحتاج منك العطف والرضا لا الإعراض ، وإن كنتَ غير راض عن كل هذا زاهداً فيه راغباً عنه . فانظر إليّ نظرة أقوى بها ، فأنت وأنا بل كنتَ وكنتُ أباً وولداً . وهي كليمة في موضعها ، لا تعدوه ، ولا ترتفع عنه ، ولا تخرج عما أُريدَ منها ، لا بد منها ، وإن كانت لا تبلغ مما في نفسي شيئاً ، وأنَّى لها بذلك ؟!

لو كان الأستاذ لنا واحداً أي واحد ممن درسنا ، وكنتُ أو كنا له طلاباً أي طلاب ممن درسهم لسهل علي العسير ولان العصيّ فقلت فيما سئلت .

وما كان الأستاذ مدرساً أيّ مدرس تتلقى عليه مادته التي يحاضر فيها ، وما كنتُ وبعض من معي ومن تقدّمني طلاباً له أي طلاب درسهم سُنيات حفظوا له فيها صورة عمودها عندهم واحد ، وتختلف في أشياء بين طالب وآخر باختلاف نفوسهم وعقولهم .

فالأستاذ رجل من عباد الله المؤمنين الصالحين الصادقين الذين شروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله ، ظاهره خير كباطنه ، كريم ، مضياف ، مفضال ، أريحي طيب النفس ، وفيّ ، عازف عن الدنيا وزخرفها ، منقطع للعبادة والعلم ، راغب عن الشهرة ساعية إليه ، كان أُمة ورجل أمة . وهو بعدُ بقية السلف والحبر البحر وريحانة الشام وخزانة علمها ، لم ير الراؤون في هذا العصر مثله ، حقًّا لا يجحدونه .

خُلق ليكون ما كان ، وترفّع عما عفِّرت فيه وجوه ، ونزَّه نفسه عما خاضوا فيه ، وتواضع لله فرفعه . فيه عزة المعتز بالله ، وقوة المستعين به ، ذو خلق وخلاق ، جبل على الوفاء والإخلاص والرحمة بالناس وحب الخير

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لهم . وكان شديداً في الحق ، للقسوة واللين مواضع يضعُهما فيها ، صريح صراحة ، يجهر بقوله ، لا يجامل ولا يورّي ، يسمي الأشياء بأسمائها .

الإحسان عادته ، والتواضع سجيته ، والحياء حليته ، والخير فطرته ، والتقوى جبلته .

وفي الصدر مني معه حديث سبعة عشر عاماً لازمته فيها ، والحديث ذو شجون ، منه ما يدون ومنه ما لا يدون .

ولو تكلفت تدوين ما عرفته خلالها من أحواله وصلته بمن اتصل به بسبب ، وآرائه فيمن حوله وفيما حوله ، وتبحره في فنون من العلم هو آية فيها – ومنها العربية واللغة والعروض والأدب وعلوم القرآن – ونظراته فيها ، وشؤون غيرها ، لو تكلفت ذلك لم أفرغ منه على وجه مرضي في سنين ذات عدد ، ولأتى ذلك في مجلدات ولبقي في النفس أشياء ، ولم يحط لفظي بنعته .

فماذا أقول في كليمتي التي سئلت ولّما يزل الأستاذ أمام ناظري ، وأجالسه ، ويكون حديث ، فما بيننا لا يقدر رحيله عنا – وهو بنيان قوم تهدم – أن يذهب به .

عرفته حين درست اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة دمشق سنة ١٩٧٤ . وكان في قسم اللغة العربية إذ ذاك أساتذة كبار علت منزلتهم في علومهم . وكان الأستاذ عينهم وزينتهم وعلامة العربية في بلاد الشام ، وهو من مفاخرها ومحاسنها ، وكان جبلاً في العلم لا نظير له في علومه ، وكان وحيد أوانه ونسيج وحده ، وكان أشهر من نار على علم .

تولى الأستاذ في السنة الأولى تدريسنا مادتي علم العروض والمكتبة العربية والأدب القديم . وكان يلتزم في حديثه العربية المبينة ، وكان حريصاً على نشر العلم ، متواضعاً تواضع العلماء الأئمة ، قدوة لطلابه في علمه وخلقه وسلوكه . ظهر لنا خلال محاضراته علم غزير ورواية واسعة وذهن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقاد وحافظة واعية . ورأى غير واحد منا أن الأستاذ من أولئك الأئمة الأثبات الأعلام المتقدمين في المائة الرابعة أو دونها تأخّر به زمانه فعاش بيننا ، وعلَّمنا ما لم يعلِّمنا أحد .

ودرّسنا في السنة الثانية نصوصاً من كتاب الكامل لأبي العباس المبرد . ولم يكن في محاضراته فيه دون صاحبه المبرد علماً باللغة والعربية والأخبار وغيرها ، بل إنه استدرك عليه في مواضع من كتابه . ولم تكن مادة النصوص عنده غاية في ذاتها بل كانت وسيلة إلى بيان أصول النظر في كلام المتقدمين وأمهات مصادر التراث العربي الإسلامي .

ثم لمّا تولى تدريسنا مادة علوم اللغة العربية في السنة الثالثة في كتاب مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري عرفنا أنه فارس هذا الميدان غير مدافع . وقد شرح مسائل من كتاب المغني شرحاً لم يقاربه أحد ممن شرحه ممن نعرف .

وما كانت مادة المغني وحدها هي ما عني به الأستاذ ، بل كان أَعْنَى ببيان منهج فهم كلام المتقدمين والقراءة الناقدة البصيرة بكلامهم ، وعدم الاطمئنان إلى النظرة العجلى فيه ولا إلى الرأي الذي يبدو لك من قراءته أول مرة .

ووجد المجال أرحب ليقول شيئاً مما في صدره من العلوم يوم تولى تدريسنا الموضوع اللغوي من موضوعات دبلوم الدراسات العليا اللغوية ، وهو من كبار أعلام الدراسات العربية الإسلامية اللغوية والأدبية . فشرح لنا أبواباً من الخصائص لابن جني ، وأملى علينا أشياء مما انتهى إليه في القراءات القرآنية . وبسط خلال ذلك أصولاً من أصول علم العربية وعلم القراءات . وهو كلَّ حين على ذُكر من كلام الأئمة المتقدمين في مسألة مسألة ، يملي كلامهم بلفظهم أو يكاد . وبسط لنا أصول تحقيق نصوص التراث العربي الإسلامي ، وهو في هذا الباب لا نظير له في علمه وخلقه ومنهجه ، كان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

غاية فيه .

كانت الجامعة مكاناً تتلقى فيه المحاضرات المقررة ، ولم يكن ما يتلقاه الطالب فيها ليكفي طائفة عطشى إلى العلم آنست في نفسها القدرة على الاستزادة منه . وكان بيت الأستاذ محلاً للعلم ومثابة لطلابه . فلما فرغنا من الدبلوم انتقلت الجامعة إلى بيته ، فحيث يكون تكون .

وكنت وبعض زملائي وكثيرون ممن عرفت نختلف إلى الأستاذ في بيته ، كلٌّ يحمل عنه ما كان مهيئاً لحمله من علمه وخلقه العلمي الأصيل وأمانته ودقته . واختار بعضنا بتوجيه منه رسالة الماجستير والدكتوراه . كان يوجهنا ويرعانا ويشجعنا ويبذل علمه ومكتبته ووقته في سبيل طلاب يرى أن لهم عليه حقّاً لأنهم طلابه ، ولأنه يحب الخير للناس ويجري بين يديه .

لازمته أي ملازمة من سنة ١٩٧٩ إلى يوم اختاره الله لجواره . عرفته أستاذاً فذّاً وأخاً ناصحاً وأباً عطوفاً وصديقاً كريماً . وعرفت أي عالم كان ، كان من أوعية العلم ، كان كنيفاً ملئ علماً ، وكان إذا سألته فجرت به ثبج بحر .

إليه انتهى علم العربية في عصرنا ، ونظر بذهنه نظر مؤثلي هذا العلم وناقشهم في بعض جوانبه ، ورأى في بعضه غير ما رأوا . وفي المشتغلين بعلوم العربية في عصرنا بلا ريب غير واحد ممن برعوا فيها وحفظوا كثيراً من مسائلها ومذاهب المتقدمين والمتأخرين فيها وعرفوا حل ما اعتاص منها ، لكنك لا تجد فيهم مثل الأستاذ ممن أداه علمه بالجزئيات إلى تصور شامل للغة وقوانينها الوضعية والعقلية . فقد أداه فكرُه في الكتاب – أعني كتاب سيبويه – وطولُ مدارستهِ له والنظرِ فيه لا إلى فهم كلام صاحب الكتاب فهماً دقيقاً – وهو أقصى ما يبلغه المتبصر بكلامه – بل إلى الوقوف على حكمة العرب في كلامها وعلى أغراض الخليل فيما نقله وفسره من كلام العرب ، وفيه ما خفي غرض الخليل فيه حتى على صاحبه سيبويه ، وفي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الكتـاب مواضع شمست حتى على أبي عليّ . كان الأستـاذ عالماً بمقاييس العربية بصيراً بها محققاً مدققاً لو رآه الخليل لسرّ به وقال له : مرحباً بزائر لا يمل . ولا يزال في الناس علم ما بقي فيهم مثل الأستاذ .

برع في علـم العـربيـة براعة ، وحذق علم القراءات حذقاً ، فهو وهذان العـلمان سواء . وله فيهما مذاهب ونظرات لا تجدها في كتاب . ووقف في علم القراءات على أصول هذا العلم عند أئمته المتقدمين ، وقد خفي أكثرها على من بعدهم . ولو كان لأحد أن يؤخذ بقوله كله في علم من العلوم لكان للأستاذ أن يؤخذ بقوله كله في غير علم ولا سيما العربية والقراءات .

ولو أراد الأستاذ نفسـه أن يضع كتاباً يفرغ فيه ما في صدره من العلم لجاء الكتاب دون ما قدر لسعة علمه بفنون من العلم وبعد غوره فيها ولتشعب مسالك القول فيها وتفرق مسائلها وانتشارها .

في بيته جرت مجالس العلم كل يوم ، وبذل لمعتفيه بذل من لا يرجو منهم جزاء .

عرفت عنده كثـيراً من الباحثين من أصدقائه وزملائه ومن قدماء تلامذته وأصحابه ، طلبوا عنده الفائدة فأطلبهم ، وكثير غيرهم ممن لم ألق كتبوا إليـه من شتى البلدان العربية فيما علموا أنه مفيدهم فيما استبهم منه وأشكل واستغلق وأعضل ، وكانت الكتب والرسائل تأتيه من كل مكان .

وعرفت في بيته كثيراً من المختلفة إليه من طلاب العلم ، وهم جم غفـير من مواضع شتى في سورية وغيرها من البلاد العربية والإسـلامية . فطائفة منهم أشكلت عليها مواضع في نصوص تحققها ، وفئة احتاجت إلى مخطوطات أو كتب نادرة في مكتبته ، وجماعة تسأله اختيار موضوع رسالة جامعية ، وثلة لم تتهد إلى تصور مرضي في دراسة علمية ، وطوائف أخرى تستفتيـه في مسـائل من علم اللغة والعربية والأدب والقراءات والتفسـير

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والحديث وغيرها . قصدوه فأكرمهم ، وسألوه فأجابهم ، وبذل لهم علمه ومكتبته ووقته . وغير واحد من تلامذته تولَّى مناصبَ علميةً في الجامعات وغيرها من مراكز العلم في سورية وغيرها من البلدان العربية .

وعرفت فيما عرفت أنه كان منكوباً في غير قليل ممن أحسن إليهم ، ما فعل لهم إلا الخير ، وضنوا عليه بالوفاء ، بل إن فيهم من أساء إليه وتنكر له ، ومنهم من أصاب به اليوم علاج ذات نفسه .

عرفت منهم من عرفت ، وحدثني بحديث كثير . كان وفيّاً يحسن الظن بالناس فيخلفه ظنه في كثير ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ [سورة فصلت : ٤٦] . .

وأقامت طائفة على الوفاء له ، تلقوا عنه ، وكسبوا بعلمه ومعرفته ما كسبوا .

وما زال الأستاذ يَنبوع علم عِدّ ، ينشر العلم ، وزكاة العلم نشره . فمنه ما وعته صدور الخاصة من أصحابه وتلامذته ، ومنه ما بثه فيما نشره وفيما لم ينشره من النصوص وفيما كتبه من مقالات ، ومنه ما قيده على الكتب التي حوتها مكتبته ، وذهب بموته علم كثير .

والموت حق على كل العباد فما حيّ بـاق ويبقى الواحد الأحد

و« إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » .

فعمل الأستاذ باق إلى يوم القيامة ، لا ينقطع حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

رحمك الله يا أستاذ أبا عبد الله رحمة واسعة وجزاك الجزاء الأوفى ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ [سورة الشعراء : ٨٩] ولا زال لسانك رطباً بذكر الله وتلاوة الزهراوين كلَّ صباح . سلامٌ عليك ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾ [سورة يس : ٥٨] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net